## المحاضرة السادسة: دور الفرد في بناء الثقافة

**عناصر المحاضرة:**

**1- فيبر والشخصية الكاريزمية**

**2- نماذج عن دور الفرد في بناء الثقافة وتنميتها**

**2-1- رسول الديانة الإسلامية محمد صلى الله عليه وسلم**

**2-2- فيلسوف الصين كونفوشيوس**

**تمهيد:**

مثلما تؤثر الثقافة في تكوين شخصية الفرد، فتكسبه أنماطا معينة من الممارسات والعادات والمعتقدات الجمعية، وتحدد أفعاله الاجتماعية بحسب الموجهات القيمية والمعيارية لمجتمعه، فإن الشخصية تساهم بدورها في صقل وتعديل الثقافات، واستبدال الكثير من مكونات الثقافة بما يحقق تقدم وازدهار المجتمع، وبطبيعة الحال ليس كل الأفراد باختلاف شخصياتهم، يمتلكون تلك القدرات والخواص، وإنما يتعلق الأمر بنمط الشخصية الفذة أو القيادة الكاريزمية (الملهمة)، والتي تلعب دورا أساسيا في عملية التغير الاجتماعي والحضاري. ولنا في ذلك أمثلة كثيرة عن الأنبياء والرسل والعلماء والفلاسفة. وضمن هذه المحاضرة سنتناول دور الشخصية في تنمية الثقافة وتطويرها، وسنعرض نماذج عنها.

### 1- فيبر والشخصية الكاريزمية :

كان **ماكس فيبر M. Weber** على عكس الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع، يؤمن بالفرد وبدوره ككائن نشيط وفاعل خارج تأثيرات مجتمعه، لذا عمل على تفسير الظواهر الاجتماعية انطلاقا من النشاطات الفردية، واحتل مصطلح الفعل الاجتماعي مكانة أولية في الفكر الفيبري، فالفرد –حسبه– له الأسبقية في الدراسة على المجتمع المكون بدوره من عدد من الأفراد، لكونه كائنا واعيا وذاتا عاقلة بكل أفعالها ونشاطاتها وسلوكها. ولكونه يملك إلى جانب ذلك القدرة على إحداث التغيير في مجتمعه، تماما كما هو الحال بالنسبة للقيادة الكاريزماتية.

وعليه، استخدم **فيبر weber** مفهوم **الكاريزما** وهو أول من استخدم المصطلح في علم الاجتماع، لوصف أشخاص منفردين، يملكون خصائص تمكنهم من القيام بأشياء غير عادية، وقد قدم **فيبر** تعريفا يعد الأكثر شهرة للكاريزما؛ حيث قال أنها "خصائص شخصية خاصة، تمنح الشخص قدرات فوق بشرية أو استثنائية، ولا يملكها سوى القليلين من البشر، وتؤدي إلى معاملة الشخص على أنه قائد". فارتبط مفهوم الكاريزما لديه بالقائد **Leader**.

وهنالك عدة تأثيرات تعد هي النتيجة المباشرة للقيادة الكاريزمية **Charismatic Leadership**، وهي تتضمن ثقة التابع في أيديولوجية القائد، والتشابه بين معتقدات الأتباع ومعتقدات القادة، والقبول المسلم به للقائد، والشعور العاطفي نحوه، وإذعان الأتباع، والتماثل معه، والمشاركة العاطفية في أهدافه، وعلو أهداف الأتباع، وثقة التابع في تحقيق الأهداف. ومن ثم، فإنه يصطلح على القيادة الكاريزمية كذلك بـــ"**قيادة سحر الشخصية** أو **القيادة الملهمة**".

وبهذا المعنى، يقصد من **الكاريزما** أو **الشخصية الملهمة Charisma/ Charisme** صفة غير عادية تتحقق لدى الفرد، فتجعل قدراته خارقة للعادة. ويعني المصطلح من الناحية اللفظية "هبة الله" أي من ترسله العناية الإلهية لإنقاذ أمته، وهو زعيم يتحلى بقوة وصفات نادرة وقدرات روحية. ويرتكز النظام الكارزمي على الطاعة للبطل والتضحية من أجل تأدية رسالته، وبقدر ما يقوم به الزعيم في ظل هذا النظام من خوارق الأعمال، فإنه يستطيع شد الأتباع بزعامته. وتعتمد القيادة الملهمة على البطولة أو القدسية أكثر من اعتمادها على الوضع الرسمي.

ومن جملة الحقائق المرتبطة بمفهوم القيادة الكاريزمية، نذكر ما يلي:

– إن مفهوم القيادة الكاريزمية يوحي بوجود قدرات وإمكانيات نوعية لدى الشخصية الكاريزمية، تسمح له بحرية الانتشار والتفوق.

– تتمتع الشخصية الكاريزمية بقدرة على كسب أصوات المؤيدين لها سعيا للفوز بموقع القيادة.

– تبرز القدرات الشخصية للقيادة الكاريزمية عندما تنجح بالتأثير في أغلب شرائح المجتمع.

– تتمتع الشخصية الكاريزمية بالقدرة على اتخاذ القرارات الاستثنائية لحسم وحل المشكلات المستعصية، التي لا تستطيع القوانين الوضعية والدستورية معالجتها.

ومع أن **فيبر** على دراية بحقيقة أن الديناميكا الاجتماعية ناتجة عن العديد من القوات والعوامل الاجتماعية؛ لكنه يؤكد بشكل خاص على دور ظهور الشخصيات الكاريزماتية كعامل أساسي للتغير الاجتماعي. طابع حركات الشخصيات الكاريزمية حماسي، مما يفسح المجال، أو يهيئ في بعض الظروف، للتآخي والشعور بالمسؤولية الاجتماعية والانتماء. وعلى الرغم من تأكيد **فيبر** على الكاريزما بوصفها صفة للشخصية، إلا أنه أقر أيضا بالدور المهم الذي يلعبه الأتباع، من أجل تحقق الكاريزما لدى هؤلاء القادة.

وبناء على هذا؛ يعتبر الأبطال الكاريزميون والأنبياء من بينهم شخصيات استطاعت إحداث حدثت تغيير حقيقي في ملامح الحضارات الإنسانية وتاريخها. إن التجارب التاريخية تمنحنا خلاصة أساسية؛ أن الشخصية الكاريزمية لها دورها القوي، عبر نفوذها الروحي في وجدان المجتمعات والشعوب، على التغيير وأخذ خيارات قصوى سياسية واقتصادية وعسكرية، هذا التفويض من الأفراد والجماعات للشخصية الفذة، يجعلها أقدر على تحقيق المعجزات.

## 2- نماذج عن دور الفرد في بناء الثقافة وتنميتها

نظرا لأهمية الشخصية الكاريزمية في التأثير على الأنماط الثقافية للمجتمعات، سوف نعرض نموذجين رئيسيين لهذه الشخصيات، أولهما شخصية الرسول **محمد صلى الله عليه وسلم**، وثانيهما الفيلسوف الصيني **كونفوشيوس**.

### 2-1- رسول الديانة الإسلامية محمد صلى الله عليه وسلم:

أقام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام، التي يتسع نطاقها إيمان المجتمعات بوحدانية الله، وبأن الإسلام هو دين الله الحق، وقد شيدت الدولة الإسلامية على قيم وأركان الإسلام العليا، فمهدت لبزوغ أعظم الحضارات الإنسانية "الحضارة الإسلامية"، وكان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، المعلم والمرشد لكل المعايير والمبادئ والممارسات الشعائرية والاجتماعية، وبين من خلال أخلاقه الحميدة، المنهاج التربوي الذي يجب على المسلمين إتباعه والأخذ به، للظفر برضا الله والفوز بجنة الخلد. فالإسلام "لا يهدف إلى إلغاء الخصائص الفطرية، الموجودة لدى الأفراد، بل يعمل على توجيهها توجيها صحيحا، والاستفادة منها" (العودة، صفحة 11).

يمثل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، النموذج التربوي الإسلامي للمسلمين، فتعاليم الدين الإسلامي جسدها من خلال سلوكه وأفعاله وممارساته، فبين للمسلمين قواعد السلوك الاجتماعي القويم، لدرجة عد فيها الدين أساس المعاملة بين الأفراد، فبين لهم ما يجب فعله (الفرائض الدينية) وما يجب تركه (المحرمات)، وبين ما هو مستحب وما هو مكروه، استنادا إلى ما يوحى إليه من القرآن الكريم، وذلك من جوانب طرق التمظهر (التستر على مواضع العورة للمسلمين و المسلمات) والطعام (تحريم الخمر وأكل لحم الخنزير..) والممارسات (تحريم عبادة الأصنام والقمار والسحر ..) والحث على الإحسان وطاعة الوالدين والصدق والصبر..، وكان عليه الصلاة والسلام خير من مثلها وتعامل بها، وهو من عرف بصدقه وأمانته وصبره بين أبناء قبيلته، وأول من تعلم القرآن وعلمه. فوضع بذلك قواعد السلوك الاجتماعي بين المسلمين، وأثر في تفاصيل حياة المسلمين حتى بعد وفاته، وظل المرجعية الأساسية للمسلمين، وأسوتهم الحسنة في كل ممارساتهم وأشكال سلوكهم.

لقد تحددت ملامح الحضارة الإسلامية وترسخت، من خلال ممارسات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أولا، ثم زوجاته وصحابته والخلفاء الراشدين، وظلت سيرته العطرة منهاجا وهديا لكل المسلمين في كل أصقاع العالم، بعد وفاته بآلاف السنين، فهو الموجه وهو المرشد وهو المعلم وهو الرمز المقدس لدى جموع المسلمين، وهو من صقل الشخصية القومية لكل المسلمين، وساهم بشخصيته وأخلاقه الحميدة، في بناء الحضارة الإسلامية، وإرساء قواعدها داخل ذواتهم المؤمنة.

### 2-2- فيلسوف الصين كونفوشيوس:

تضفي الروايات الصينية القديمة هالة من التقديس على شخصية كونفوشيوس، حتى يكاد أن ينسب إليه تأليف جميع ما أنتجه الفكر الصيني في جميع عصوره، وأكثر من ذلك استطاعت أفكار كونفوشيوس أن تعيش وتؤثر في الصين المعاصرة قرابة الخمسة والعشرين قرنا وما زالت، سواء من خلال العادات والتقاليد، أو تيارات "الكونفوشيوسية الجديدة"، أو من خلال الجدل المستمر الذي تثيره أفكار كونفوشيوس بين المثقفين. وعلى المستوى الرسمي، كان تأسيس الصين لـــ "معاهد كونفوشيوس" في مختلف أنحاء العالم، اعترافا من الصين المعاصرة بمكانة هذا الحكيم، ودليلا على أن مكانة كونفوشيوس لا تزال محفوظة في حاضر ومستقبل الصين.

يعد كونفوشيوس أول فيلسوف صيني يفلح في إقامة مذهب يتضمن كل التقاليد الصينية عن السلوك الاجتماعي والأخلاقي. ففلسفته قائمة على القيم الأخلاقية الشخصية (المتضمنة في الثقافة الصينية)، وعلى أن تكون هناك حكومة تخدم مجتمعها تطبيقا لمثل أخلاقية عليا. ولقد كانت تعاليمه وفلسفته ذات تأثير عميق في الفكر والحياة الصينية، والعديد من المجتمعات الآسيوية، منها: الكورية واليابانية والتايوانية والفيتنامية.

ساهمت الفلسفة الكونفوشيوسية في بسط الأرضية الفكرية لتطور الثقافة الصينية، وذلك من خلال ثلاثة نقاط رئيسية، نوردها فيما يلي:

- الروح العملية
- الإعلاء من شأن الأخلاق
- إرساء تقاليد تقدير التجربة التاريخية

ورغم أن كونفوشيوس يؤمن بالقضاء والقدر، لكنه لا ينتظر ترتيبات الأقدار. بل يؤمن بضرورة بذل الإنسان كل ما في وسعه للوصول إلى أعلى المراتب. حيث يقول "**إذا تعلّمت فلا تقْنع، وإذا علّمت فلا تكلْ**". وفي حديثه عن حياته يقول:"**انهمكت في العمل (الدراسة) حتى نسيت الطعام، وفي السعادة حتى نسيت الخوف، ودون أن أشعر وجدت العمر قد جرى بي**". ويقول أيضا "**كم سيء أن تكتف بملء البطن دون أن تفعل شيئا مفيدا في يومك**". فروح العمل والإنجاز تبدو جلية في كامل أركان البنية الفكرية لكونفوشيوس.

لقد كان كونفوشيوس مُنظرا سياسا بارعا، وينبني فكره السياسي على ثلاثة نقاط رئيسية، نوردها كالتالي:

- الحكم وفقا للأخلاق
- مركزية السلطة
- معارضة الاستبداد الفردي واحتكار الوزراء للسلطة.

فقد أولى كونفوشيوس أهمية كبيرة لدور الأخلاق في السياسة، وطالب الحاكم بأن يعط القدوة الأخلاقية للمواطنين، حيث يقول في هذا الجانب: "**السياسة هي الاستقامة، فإذا كان الحاكم مستقيما، هل سيجرؤ المحكوم على ألا يستقيم؟**".

فالأخلاق تعد مركز أفكار كونفوشيوس. وقد كان لقيمة الأخلاق تأثيرا بالغا في تطور الثقافة الصينية. ويقول كونفوشيوس عن علاقة الإنسان بالأخلاق، "**إن النبيل من جعل الأخلاق أعلى المراتب**"، حيث يرى كونفوشيوس أن الأخلاق هي الشيء الأكثر قيمة بالنسبة للإنسان.

**خلاصة:**

تعتبر الشخصية الكاريزمية أو الملهمة، القدوة الحسنة والنموذج المثالي للأخلاقيات والسلوكيات ومجمل المعتقدات والأعراف الجمعية التي تمارس داخل أي مجتمع، وتبرز هذه الشخصيات الفذة بأن الفرد قادر كذلك على تغيير جوانب كثيرة من الثقافة سواء تلك المادية أو اللامادية، ومثلما تلعب الثقافة دور في تشكيل وصقل شخصية الأفراد، فإن شخصية الفرد كذلك قادرة على إحداث التغيير على النمط الثقافي لمجتمع ما أو لعدة مجتمعات، كما تكون قادرة على التأثير في العديد من الشخصيات من حولها، وإن كان ذلك بعد وفاتها بآلاف السنين.